

البيعة في الاسلام

الدكتور جعفر شهيدى

كلية الآداب - جامعة طهران

البيعة في اللغة العربية ضرب اليد على اليد في ايجاب عقد البيع وفي المبايعه على ايجاب الطاعة. وفي اصطلاح المسلمين فالبيعة ضرب اليد اليمنى على يد شخص دليلاً على قبول امارته أو رئاسته. وبعد هذا التعريف. يبادر كاتب، المقالة الى دراسة البيعات المشهورة قبل الاسلام وفي العهد الاسلامي يمكن ان نذكر منها بيعة العشيرة و بيعة الرضوان و بيعة السقيفة حيث تناولها الكاتب بالبحث. ثم تحدث عن البيعة في تاريخ ايران واورد عدة نماذج لبيعة الملوك في تاريخ ايران. ثم تطورت البيعة بعد دخول المغول الى ايران فاكتفوا بكلمة البيعة للدلالة عليها.

و ذكر الطبري في حديثه عن عزم قصي بن كلاب جد الرسول (ص) الأعلى على إخراج خزاعة من مكة قائلاً: قبلت قريش و بنو كنانة منه مادعاهم إليه و بايعوه عليه.^(٥) و بعد ظهور الاسلام، كانت بيعة العشيرة أول بيعة جرت بمكة في عهد الرسول (ص)، وحدثت بعد ثلاث سنوات من البيعة. ولما نزلت آية «وأنذر عشيرتكم الأقرين»^(٦) دعا الرسول (ص) أربعين شخصاً أو ما يقرب من الأربعين من أبناء عبدالمطلب و قال لهم في خطاب ورد في التواريخ: يا أبناء عبدالمطلب، لقد بُعثت إليكم وإلى الناس، فأياكم يبايعني على أن يكون أخي و صاحبي و وارثي فيكم؟ فلم يجبه سوى علي (ع) فقالها مرات ثلاث و أخيراً بايع رسول الله أمير المؤمنين علياً (ع)^(٧).

والبيعة الثانية^(٨) التي جرت في مكة كانت بيعة العقبة^(٩) الأولى، فحينما انتشر في يثرب نبأ ظهور الاسلام على يد ستة نفر من أهل هذه المدينة كانوا قد التقوا بالرسول بجانب الكعبة، قدم إلى مكة اثنا عشر حاجاً و بايعوه. و كانت شروط البيعة كما

البيعة، في اللغة، ضرب اليد على اليد في ايجاب عقد البيع. و في مبايعه، على ايجاب الطاعة^(١). أما في اصطلاح المسلمين، فالبيعة، ضرب اليد اليمنى على يد شخص ما، دليلاً على قبول امرته أو رئاسته. و يبدو مما أورده اللغويون، أن هذه الكلمة، كانت تستعمل في البدء للبيع والشراء. ثم في تعهد اثنين كل تجاه الآخر، «و كأن كل واحد منها باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خاصة نفسه و طاعته و دخيلة أمره»^(٢). و يذكر الهروي أن البيعة في اللغة بمعنى العهد والعقد^(٣). و يبدو أن البيعة بالمعنى الثاني للكلمة تجري بضرب يد البائع اليمنى على يد الشاري، كما يقول كعب: حتى وضعت يميني لا أنازعها

في كفّ ذي نِعَمَاتٍ قبيلهُ القبيل^(٤) و نحن نعلم أن هذا البيت نظم في صدر الاسلام. و كانت بيعة عند العرب قبل الاسلام مألوفة أيضاً. فحينما يقبلون رئيس قبيلة أو زعيم لهم، أو يتعهدون بعمل له، يعلنون عن وفئهم بضرب أيديهم على يده.

أوردها ابن هشام:

١ - ألا يشركوا بالله شيئاً

٢ - ألا يسرقوا

٣ - ألا يقتلوا أولادهم

٤ - ألا يأتوا بيهتان يفترونه.

٥ - ألا يعصوا الرسول (ص) في معروف يأمره^(١٠).

وجرت البيعة الثالثة بعد سنة من بيعة العقبة الأولى في نفس الموضوع، و بايع الرسول (ص) فيها ثلاثة و سبعون رجلاً و امرأتان. و تعهد فيها موفدو أهل يثرب بنصرتهم والدفاع عنه دفاعهم عن أولادهم^(١١).

و بعد أن هاجر الرسول (ص) من مكة إلى يثرب و دعيت هذه المدينة بمدينة الرسول ثم بالمدينة، جرت بينه و بين أبناء الجزيرة العربية بيعات عديدة، حتى السنة التي انتقل بها إلى جوار الحق. فكان هؤلاء الموفدون، يقدمون إليه، و يضربون أيديهم على يده تعبيراً عن وفائهم، أو أن رسول الله كان يأخذ البيعة بنفسه. و كان أهم هذه البيعات بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة.

و سببها أن الرسول حينما خرج في ذي القعدة عام ستة للهجرة إلى مكة مع أصحابه معتمراً، واجه في الطريق جماعة من موفدي قريش في موضع باسم الحديبية؛ جاءوا ليمنعوه من الدخول إلى مكة، فأرسل الرسول (ص) عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليخبرهم بأنه لم يأت للحرب، وإنما جاء معتمراً. فخرج عثمان إلى مكة و بلغ قريشاً عن الرسول ما أرسله به، فاحتبسه رؤساء قريش عندهم، و بلغ رسول الله (ص) و المسلمين أن عثمان قد قتل. فدعا الرسول الناس ممن معه إلى البيعة، فبايعوه على حرب أهل مكة لم يتخلف عنه إلا واحد^(١٢).

وسميت هذه البيعة بيعة الشجرة لأنها جرت تحت شجرة السمر، كما دعيت ببيعة الرضوان لقوله تعالى «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة...»^(١٣).

و بعد وفاة رسول الله (ص) شاعت عادة مبايعة المسلمين لخلفائه. و كانت أول هذه البيعات في السقيفة، فاجتمع عدد هناك و بايعوا أبا بكر بالخلافة و دعوه خليفة المسلمين.

كما توجه في نفس الوقت كل من العباس و أبي سفيان إلى

علي عليه السلام، و خاطباه في أن يبايعانه بالخلافة، فأجابها خطبة وردت في نهج البلاغة^(١٤).

وفي عصر أبي بكر و عمرو عثمان و أمير المؤمنين علي (ع) ك أهل المدينة يضربون أيديهم على يد الخليفة إعلاناً عن قبوه خلافته و وفائهم له. كما كانت البيعة تجري أحياناً بالرضى، حدث في بيعة عمر، فقد قرأ عثمان رسالة أبي بكر التي أوصى فيها بخلافة عمر على الحاضرين و قبلوا بها^(١٥).

وقد ورد الحديث عن بيعة المسلمين مراراً في خطب و رسائل أمير المؤمنين (ع). فجاء في إحدى هذه الخطب: «فأقبلتم إلى إقبال العوذ المطافيل على أولادها، تقولون: البيعة البيعة!!»^(١٦)

وجاء في رسالة بعث بها إلى معاوية: «إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر و عمر و عثمان»^(١٧) و كتب له في رسالة أخرى «فبايع من قبلك، و أقبل إليّ في وفد من أصحابك»^(١٨)

و كانت البيعة تتم على هذا الشكل رسمياً في عهد الخلفاء الراشدين و الأمويين و العباسيين و حتى الخوارج و الفاطميين و كل الذين كانوا يدعون زعامة المسلمين.

البيعة في ايران الاسلاميّة

كان الحكام في ايران كما نعلم يعيّنون في القرون الأولى للإسلام، من قبل الحاكم في العراق (الكوفة)، و حينما يموت خليفة و يخلفه آخر، يأخذ هؤلاء الحكام البيعة له من الناس. و حينما ورد نبأ وفاة يزيد و ابنه معاوية إلى سلم بن زياد حاكم خراسان، و كان النزاع على الخلافة قد بدأ آنذاك بين ابن الزبير من جهة و بين مروان بن الحكم من جهة أخرى، أخذ سلم بيعة الرضى من الناس ريثما يستقر أمر الخلافة^(١٩). فقبل الخراسانيون، ثم مالبتوا أن ثاروا عليه.

كانت البيعة للملوك و الحكام كما ذكرنا (بضرب اليد على اليد) عادة عربية، و رغم بحثي الطويل لم أجد مثل هذه العادة في عهد الملوك الايرانيين.

وقد وردت كلمة البيعة مرة في الشاهنامه، و ذلك في عهد قباد: از ايران برأو كرد بيعت سپاه

درم داد يكساله از گنج شاه^(٢٠)

بايع جيش ايران، الملك فأعطاه راتب سنة من الخزانة.

و كانت عبارة الطبري حول ذلك:

«واجتمع إليه الوجوه فملكوه»^(٢١) و جاء في ترجمة هذا التاريخ ما ترجمته: اجتمع الناس حول شيرويه، وبايعوه في تلك الليلة أيضاً^(٢٢).

ويبدو أن مترجم تاريخ الطبري استعمل كلمة البيعة لأنه كان يعيش في عصر السامانيين و كانت عادة البيعة مألوفة عندهم، و تأثر الفردوسي بهذه الترجمة فاستعمل تلك الكلمة. وجاءت كلمة البيعة في النظم والنثر الفارسيين بمعنى المصافحة أو ضرب اليد على اليد، فقد ورد في تاريخ البيهقي في حديثه عن بيعة مسعود للخليفة العباسي قوله:

«و دست برای آن گشاده ام و بجهت عقد دست بردست زده ام»^(٢٣) أي: و بسطت يدي، و ضربت يداً على يد للبيعة.

و هذه العبارة أيضاً: «دست های راست دادند دست دادنی از روی رضا و رغبت»^(٢٤). و ترجمتها: و اعطوا للصفق أيانهم بالبيعة إصفاق رضی و انقياد»^(٢٥)

وللشاعر أنوري:

انوری را خدایگان جهان

بیش خود خواند و دست داد و نشاند^(٢٦)
أي: دعا ملك العالم العظيم أنوري إليه و صافحه و أجلسه إلى جواره.

و أورد نظامي عروضي في وصفه لدخول فرخي على أمير الجعانيين قائلاً «امير دست داد و جای نيکو نامزد کرد»^(٢٧) وهي تعني بلاشك انه وضع يده في يد فرخي التي كان قد بسطها للبيعة. و أما تفسير المرحوم دهخدا للمصافحة بالاشارة اليه كي يجلس هناك فليس صحيحاً.

ويبدو أن هذه العادة زالت بعد هجوم المغول على ايران و بغداد و قتل المستعصم و سقوط الخلافة. و استعمال المؤرخين في العهد المغولي لكلمة البيعة كان لفظياً فقط. و منها ما ذكره الجويني في شرحه لجلوس «منكوقا آن» على العرش:

«هر کسی که در آن جمعیت حاضر بودند بر سبیل تبعیت بیعت کردند»^(٢٨) اي كل من كان حاضراً بايع على سبيل التبعية. ذلك أن عادة البيعة لم تكن بين المغول بالمعنى الذي أوردناه في بحثنا.

و لم يرد ذكر لبيعة الناس للملوك في عهد الايلخانيين و التيموريين و حتى الملوك الصفويين ذوي الطابع المذهبي فقد ذكر خواند مير مثلاً في حديثه عن جلوس الميرزا شاهرخ على العرش قائلاً:

لقد شرف جلالته في شهر رمضان سنة سبع و ثمانمائة العرش و المملكة بوجوده في بلدة هراة الزاهرة. و وضع تاج الخلافة و الفتوحات على رأسه، و ألقى ظل العدل و رعاية الرعية على مفارق العالمين، و أبدى ولاة الولايات الخاضعة الطاعة و الانقياد و الامتثال للأوامر، و توجهوا بخطى الاخلاص إلى عتبة البلاط السامي ليؤدوا فروض الرق و العبودية...^(٢٩)

و وصف هذا المؤرخ أيضاً جلوس الشاه اسماعيل على العرش بقوله:

في أحد أيام سنة ست و تسعمائة، اليوم الذي كان كالأعياد المبهجة و كأيام نبروز يضي الفرغ على النفوس. بسط الظل السلطاني المبارك ظلال القدرة و السعادة على مفارق المواطنين في تلك الديار، و كشف ظلمات الظلم و شوائب الجور عن حمى آذربيجان و جلا مرآة ضمير أهل الايمان بنور طلعة مزين العالم و صيفل العدل الذي يحو الظلمات^(٣٠).

و ورد في كتاب خلاصة السير، تأليف محمد بن معصوم خواجكي الأصفهاني الذي هو على قيد الطبع بتحقيق الصديق العالم السيد ايرج افشار، قوله في حديثه عن جلوس الشاه صفي على العرش: في تلك الساعة السعيدة شد السلطان الشاه اسماعيل، العظيم العادل فردوسي المثوى، أنار الله برهانه، الحزام و السيف الملكيين، في عبارة عالي قابو، و زين العرش و التاج بعز وجوده... ثم أجلسوه على العرش.

و ذكر في موضع آخر: بناء على أوامر ضل الله في الأرض عقد في يوم الجمعة الثامن من الشهر المذكور (جمادي الثانية) اجتماع حاشد في مسجد الشاه، ألقى فيه نواب كبير المجتهدين خطبة بليغة باسم السلطان الأعظم^(٣١).

و كما نرى لم يشر إلى البيعة في هذه المصادر التي اوردت كلمة الخلافة أحياناً تعبيراً عن سلطنة هؤلاء الملوك، ثم إن البيعة الرسمية كانت متداولة بين العرب، و حينما تأسست الدولة الاسلامية أبقى رسول الله (ص) على هذه العادة التي ظلت

مرعية طالما كان الحكم يتخذ شكل الخلافة أو زعامة المسلمين عامة.

المصادر والهوامش:

- ١ - ابن منظور، لسان العرب.
- ٢ - ابن الأثير: النهاية.
- ٣ - الغريبين.
- ٤ - كعب بن زهير، حينما بايع الرسول والقي قصيدته المعروفة، وروي «ذي النعت» عوضاً عن «ذي النعمت أيضاً».
- ٥ - تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٠٩٤.
- ٦ - سورة الشعراء، ٢١٤.
- ٧ - يرجع الى تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١١٧٣، وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٧٤.
- ٨ - المراد البيعات الجماعية.
- ٩ - العقبة بين منى ومكة تبعد ميلين عن المدينة.
- ١٠ - السيرة، ج ٢، ص ٤١.
- ١١ - ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٥٠.
- ١٢ - نفس المصدر، ن، ج ٣، ص ٣٦٤.
- ١٣ - سورة الفتح: ١٨.
- ١٤ - الخطبة الخامسة التي تبدأ بـ «شقوا امواج الفتن».
- ١٥ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٢٦، طبع دارصادر.
- ١٦ - الخطبة مائة وسبع وثلاثون.
- ١٧ - نهج البلاغة، الرسالة السادسة.
- ١٨ - الرسالة الخامسة والسبعون.
- ١٩ - الطبري، ج ٧، ص ٤٨٩؛ الكامل، ج ٤، ص ١٥٥.
- ٢٠ - الشاهنامه، الدكتور دبير سياقي، ج ٥، ص ٢٥١١.
- ٢١ - تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٠٤٤.
- ٢٢ - ترجمة تاريخ الطبري، تصحيح المرحوم گنابادي، ص ١١٥٥.
- ٢٣ - تاريخ البيهقي، الدكتور فياض، ص ٣١٤.
- ٢٤ - نفس الكتاب، ص ٣٠٩.
- ٢٥ - نفس الكتاب، ص ٢٩٩.
- ٢٦ - أنوري، مدرس، ج ٢، ص ٦١٠ ويرجع الى شرح مشكلات انوري لكاتب المقالة، ص ٥٤٩.
- ٢٧ - جهاز مقاله (المقالات الأربع)، الدكتور معين، ص ٦٣.
- ٢٨ - جهانگشا، ج ٣، ص ٢١.
- ٢٩ - حبيب السير، ج ٣، ص ٥٥٤.
- ٣٠ - نفس الكتاب، ج ٤، ص ٤٦٧.
- ٣١ - اشكر الصديق العزيز السيد أفسار الذي تفضل باعطائي صورة عن هذه الصفحات.